

كلام أمير المؤمنين "ع" مراحل الاكتساب ومقومات الفردة

أ.د. رزاق عبد الأمير الطيار

الباحث مرتضى علي كريم

المقدمة:

لاشك أن الله تبارك وتعالى أعظم المتكلمين وصاحب الخطاب الأكمل، وأن الكتب السماوية المقدسة ماهي الا دليل على ذلك، وأن رسوله محمد ابن عبد الله (ص) هو المفسر الأول للقرآن الكريم، نهض من بعده أئمة الهدى من أهل بيته الطيبين الطاهرين (ع) فهم عدل القرآن، فكان على رأسهم إمام الهدى وسيد البلاغة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) باب مدينة العلم ويعسوب الدين.

إن كلام أمير المؤمنين عليه السلام يعدّ نصاً بلاغياً رفيع المستوى عميق الدلالة فريد في نظمه وبنائه، وقد شغل عقول أرباب اللغة؛ لما تجلّى فيه من كمال لسمات النص الكلامي، حتى بلغ ذروة البلاغة والبيان. قام الباحث بتسليط الضوء على هذا الجانب المهم من حياة أمير المؤمنين (ع)، في مطلبين، الأول تضمن اكتساب اللغة عند الفرد والمؤثرات في تكوينها، تناولنا فيه: عامل الوراثة، والعوامل البيئية المحيطة للفرد، والثاني تناول عوامل الفردة في لغة الإمام عليّ (ع) وأسبابها، المتضمنة: (عامل الوراثة، الولادة المباركة، تربيته في كنف الوحي والرسالة حتى وفاة الرسول (ص)).

المطلب الأول: اكتساب اللغة عند الفرد والمؤثرات في تكوينها:

إنّ علماء النفس من أهل الاختصاص، أشاروا إلى أنّ سبب المؤثرات الرئيسة في بناء الشخصية عاملان أساسيان، يتصارعان فيما بينهما لإثبات الهيمنة أو الاشتراك في سيادة التأثير على شخصية الفرد وبنائها في مراحل النمو، والعاملان هما: (١)

أولاً: عامل الوراثة:

حينما تنتقل الحيوانات الذكرية من الأب الي البويضة في رحم الأم تحمل نسخة من الجين الوراثي (DNA) للأب الجسدية والنفسية، بل وتخزن صفات الآباء والأسلاف المتقدمين، وما أن تلقي بمثلتها من الأم في عملية التخصيب لمتزوج مع بعضها لإنتاج جين وراثي جديد، في فرد مستقل، وهكذا ترسم صفاته وميوله وغرائزه وقدراته العقلية، وإذا أردنا أن نتتبع سيرة فرد معين فعلينا التحري والبحث عن تاريخ عائلته من طرف الأب والأم لنكشف شخصيته أو نتعرف على مواطن الخير أو الشر فيها.^(٢)

وهنا يمكن القول: إن عائلة الإمام عليّ (ع) وآبائه هي سلالة العز والشرف والمروءة (أبو طالب) زعيم مكة ووجيهها، وسيد البطحاء، وعميد بني هاشم، ورث الزعامة والسيادة من أبيه عبد المطلب سيد قريش، وحامي البيت العتيق. و(فاطمة بنت أسد) الأم الهاشمية النقية سليمة أشرف العرب النجباء. فهذه السلالة قد ورثت صفات الخير والنبل من أبيهم نبينا إبراهيم (ع) وتناقلت كل تلك الصفات في سلسلة شريفة من آبائهم حتى انتهت إلى (عبد الله) و(أبو طالب) رضوان الله عليهما.

ثانياً: عامل البيئة المحيطة:

فقد ينشأ الطفل ضعيف الشخصية جباناً إذا كان الذين أشرفوا على تربيته يستعملون معه أسلوب الإرهاب والتخويف، وقد ينشأ شجاعاً مقداماً، إذا كان التعامل معه بكل ثقة وتفاعل. كما أن من يلقي إشباعاً عاطفياً وحناناً وعناية في صغره، يكون نفسياً مختلفاً تماماً عن ذلك الذي يواجه بالجفاء والقسوة، حتى ولو كانا أخوين توأمين وعاشا في بيت واحد.^(٣)

إن مخيلة الطفل في هذه المرحلة في النمو تشبه لوحة أو صفحة بيضاء نقية تقبل كل لون أو كتابة، وأيضاً كشريط فلم (فوتوغرافي) يطبع عليه كل صورة مهما كانت، وبلا شك أن صورة النبي (ص) هي

ثاني صورة التقطت في مخيلة الإمام عليّ (ع) بعد صورة أمّه؛ إذ أن أبوه (أبو طالب) كان مسافراً، فلم يره إلا بعد عودته من السفر.^(٤) فكانت تلك البيئة السامية التي اكتسب الفصاحة من جماجم العرب البلغاء أبو طالب وابن عمه النبي الاكرم (ص) ومن نقيات الجيوب، فتلقف أولى كلماته من تلك النخبة العالية من قريش التي استعملت أبلغ الأساليب في الخطاب ولم يذكر التاريخ شائبة أو مثلبة تعكر صفوة فصاحتهم.

المطلب الثاني: عوامل الفرادة في لغة الإمام عليّ (ع) وأسبابها:

أولاً: عامل الوراثة:

إذا أردنا الحديث عن علي (ع) فمن الطبيعي التعرض لذكر أبويه: (أبو طالب، وفاطمة بنت أسد) من سلالات العز والشرف والمروءة، وحسب كلّ امرئ له في الأنساب أن يفخر بمثل هذين الأبوين؛ فأبو طالب زعيم مكة وسيدها في بني هاشم، ورث الزعامة من أبيه (عبد المطلب) سيد قريش، وحامي حرم البيت العتيق. فلا أحد من ولد عبد المطلب قد نال ما ناله أبو طالب من الهيبة، ومن أراد الدليل أدلّه بالقول: إن طغاة القوم من قريش ومن جاورهم من القبائل وبكل جبروتهم ووحشيتهم وهمجيتهم لم يستطع أي أحد منهم أن يتناول على نبي الله (ص) في حياة أبي طالب، وكانت الهيبة والزعامة تمنعهم من إيذاء الرسول (ص) مادام عمه موجوداً. وأما السيدة الجليلة (فاطمة بنت أسد) فهي وريثة البطحاء والشمم والحنفية السمحاء، توارثت الصفات من أجدادها سادة الجزيرة العربية، من ولد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كرامتها عند الله تعالى فريدة من نوعها، على سائر نساء العالمين.

ثانياً: الولادة المباركة:

حينما اقترب موعد ولادة خليفة الله كانت تدعو رَبَّهَا، في بيته العتيق فأخذها المخاض فألصقت جسدها وروحها على أستار الكعبة وجدارها تناجي ربها وتتضرع إليه بمولودها، فاستجاب الله دعاءها، لتلد نورا إلهيا، وقدوساً علوياً، لتكن هذه الولادة في وبهذه الكيفية كرامة ما بعدها كرامة. فالإمام عليّ (ع) ولد في الكعبة ولم يشاركه أحد في ذلك، وأمه وحدها وضعت وليدها فيها.^(٥)

ففي سنة (٦٠٠هـ) على المشهور ولد الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وذلك يوم الجمعة الثالث عشر من رجب، سنة (٣٠) من عام الفيل، أي بعد مولد النبي (ص) بـ(٣٠) سنة. وعندما سأل جابر بن عبد الله الأنصاري النبي (ص)، عن ميلاد الإمام عليّ (ع) فأجاب بقوله: ((قد سألتني، عن خير مولود وُلد، في شبه المسيح، ان الله تبارك وتعالى، خلق علياً من نوري، وخلقني من نوره، وكلانا من نور واحد، ثم إن الله تبارك وتعالى، نقلنا من صلب آدم في أصلاب طاهرة إلى أرحام زكية، فما نقلت من صلب إلا ونقل علي معي، فلم يزل ذلك، حتى استودعني خير رحم هي آمنة، واستودع علياً خير رحم وهي فاطمة بنت أسد))^(٦) وقال رسول الله (ص): ((خلقت أنا وعلي من نور واحد))^(٧)، ((أنا وعلي من نور واحد))^(٨)، أقبل علي (ع) فقال النبي محمد (ص): ((مرحباً بأخي وابن عمي والذي خلقتُ أنا وهو من نور واحد))^(٩).

شاء الله تعالى أن تكون نفس الرسول (ص)، ونفس ابن عمه علي (ع) القديستين من سنخ واحد، وجسديهما الطاهرين من أصل واحد أيضاً، فلا شك هما متماثلان في الصفات والشمائل والخصال والخصائص، عدا بعض الملامح والفوارق الجسدية الظاهرة والمميزة بينهما، بوصفهما فردين مختلفين شكلاً، كون الصفات واللامح تحدّرت من أبوي كُلِّ منهما، ولنا أن نفس ذكر مفهوم النور هنا من

الناحية العلمية (بالجينات الوراثية)، ويبدو أن الانتقاء جاء من قبل السماء، فكانت الجينات سائدة والصفات نقية.^(١٠)

ولم تتأثر هذه الجينات على مر العصور بكثرة الاختلاط والمزاوجة، فبقيت تنتقل بنقاها وطهارتها بين الأصلاّب الشامخة والأرحام المطهرة كما بينها الحديث الشريف أنف الذكر، وذلك بعناية الله تعالى، وهذا يفسر معنى قوله (ص): ((وَلَقَدْ رَكَبَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ وَنَحْنُ فِي صَلْبِهِ وَلَقَدْ قُذِفَ إِبْرَاهِيمُ فِي النَّارِ وَنَحْنُ فِي صَلْبِهِ...))،^(١١) حتى انتقلت تلك الجينات إلى صلب جدهم عبد المطلب، وانتشر على نسختين متماثلتين، ذهبت واحدة منهما في صلب عبد الله والد النبي (ص)، والثانية في صلب أبي طالب والد عليّ (ع)، فخلّق من تلك خاتم الأنبياء والمرسلين، وخلّق من هذه سيد الأوصياء وأمير المؤمنين، ويؤكد النبي (ص) في ختام حديثه الشريف أن لحمهما واحد، ودمهما واحد، متماثل تماما في الخواص الجينية. ونرى دقة الوصف في الحديث الشريف حينما يقول: إن ذلك النور انشطر نصفين، ونعلم اليوم أن الجينات الوراثية تكون على شكل (أزواج) متماثلة فكل فرد يمثل نسخة مطابقة لقرينه، وانفصال الأزواج يكون في الحيوانات الذكرية، لتكون سلسلة مفردة من الجينات تلتقي بجينات أخرى المتمثلة بالبيضة القادمة من الزوجة، لتشكل من جديد مواصفات الجنين الجسدية والنفسية، وهكذا يفسر انقسام النور الإلهي. إن تلك الخصائص الفريدة النفسية، والسمات الروحانية، والصفات الجسدية، عند الإمام عليّ (ع) كانت هي نفسها عند النبي الأكرم (ص).^(١٢)

ومن هذه الزاوية المشرقة ننظر إلى مجموعة الأحاديث النبوية الواردة في حق ابن أبي طالب (ع)، والتي تشير إلى الأصل الواحد، أو الطينة الواحدة، أو الشجرة الواحدة، منها قوله (ص): ((عليّ مني وأنا من عليّ))،^(١٣) وقوله (ص): ((يا عليّ الناس من شجرٍ شتّى وأنا وأنت من شجرةٍ واحدة...)).^(١٤)

وقوله (ص): ((الناس من شجرٍ شَتَّى وأنا وعليّ من شجرةٍ واحدة))^(١٥) وكثير من الأحاديث التي ورد ذكرها.

أشار أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه وكلامه تكريم الله عز وجل للنبي (ص) وتخيره تعالى الأصول الطاهرة والطرق الشرعية في تنقلهم في أصلاب الفحول والأرحام الطاهرة، من نبينا آدم (ع) وصولاً إلى أبيه عبد الله، بقوله (ع): ((حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ (ص) فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزَّ الْأَرْوَامَاتِ مَغْرَساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَخَبَ مِنْهَا أَمَنَاءَهُ، عَثْرَتْهُ خَيْرُ الْعَثَرِ، وَأُسْرَتْهُ خَيْرُ الْأُسْرِ، وَشَجَرَتْهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ، وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ))^(١٦).

وبذلك تبيّنت عناية الله عز وجل ببيت الوحي والنبوة، وشاءت بذلك إرادته أن يخلقهما، وأن يستخلفهما في عبادته، وليكشف لنا سبب اختيارهما دون سواهما من الخلق.

ثالثاً: تربيته في كنف الوحي والرسالة حتى وفاة الرسول (ص).

تولى النبي الكريم (ص) بنفسه تربية علي (ع)، وذلك عندما أتت أمه فاطمة إليه فلقيت منه حباً شديداً له وكان يطهره في وقت غسله، ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويلاحظه حتى إنه قال: ((اجعلي مهده بقرب فراشي، وكان صلى الله عليه وآله يُطَهِّرُ علياً في وقت غُسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويلاحظه ويقول: هذا أخي، ووليي وناصري وصفيي وذخري وكهفي، وصهري، ووصيي وزوج كريمتي وأميني على وصيتي وخليفتي))^(١٧)، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها، فاقترت تربية الإمام (ع) على والديه والنبي (ص) كي لا يكون لاحد دخل في تكوين الشخصية العلوية الكريمة، ولتكون نسخة ثانية مماثلة للنبي الأعظم (ص).^(١٨) هذا

بفضل البيئة السليمة والتي تمدّح بها الرسول (ص) بقوله: ((أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أي من قریش))^(١٩) و((الله أدبني وأنا أفصح العرب...)).^(٢٠)

فهذه البيئة هي الأولى في الفصاحة فلم يستمع إلى ما كان يسمعه أقرانه في ذلك الزمان من شعر ونثر والتي كانت تشوبها منافيات المروءة والقيم العالية، بل تربي على الاستماع إلى الفضائل ومبادئ الدين الابراهيمي الحنيف وما لبث إلا وكان ثالث ثلاثة في بيت تشربت نفسه لغة الدين الجديد وهي لغة القرآن ولغة النبي الأكرم (ص)، يمكن القول إن تجربة الإمام (ع) خلال سني عمره الأولى كانت فريدة لم تنتهياً لأحد آخر غيره في هذه المعمورة، فاكتمسب لغة خاصة يمكن وصفها بثقة أنها أعلى مستوى بلاغي في لغة العرب يوم ذاك وهذه اللغة ظهرت أثارها في كلام الإمام عليّ (ع) في المراحل العمرية المتعددة. فالبيئة التي أخذ عنها أمير المؤمنين (ع) لغة الأم هي أنقى بيئة لغوية في تاريخ اللغة العربية فهو اكتسب من افصح العرب، ذاك النبي العربي (ص)، وأخذ أيضاً لغة أمه وأبيه هذه الأسرة الشريفة كانت مهد الإمام وكنفه.

لم يخالط عليّ (ع) غير (محمد) (ص)، وأمه وأباه) ولم تذكر لنا مصادر التاريخ أنه كان يلعب مع أقرانه من أبناء قریش وبهذا لم يسمع ما كان يسمعون في صباهم ذلك الزمان من غث الكلام وقبيحه ولم تتطرق إلى مخيلته الطفولية النقية أية معانٍ مبتذلة ولم يكتسب أي مفردات بذيئة كانت تدور في خارج بيئته الصغيرة. وهكذا تربي هذا الطفل بعناية النبي الأكرم (ص)، فمنذ نعومة أظفاره تربي وترعرع في بيئة هي النموذج الأمثل للبيئة الصالحة خلقاً وعلماً ومنطقاً، فهي الأولى في الفصاحة والبيان. لقد تشربت نفس عليّ لغة السماء منذ اليوم الأول لنزولها، فقد سمع أولى كلمات الوحي وعاصرها كلمة كلمة وآية آية ختم عمره الشريف في هذا الفضاء فضاء السماء ووحيتها وقيمها.

كشف الإمام عليّ (ع) عن تلك المرحلة، والمراحل التي تلتها بقوله (ع): ((أنا وَصَعْتُ فِي الصِّغَرِ بَكْلَاكِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حَجَرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيُسَمِّنِي عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ... وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عِلْمًا مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ... صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهَا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ)).^(٢١)

ليس بعد هذا النص من قول، فقد بين الإمام عليّ (ع) مراحل تكوينه الأولى النفسية واللغوية الفريدة، واسبس شخصيته ومصادر علومه ولغته البليغة بما يكشف لنا بصورة جلية لا لبس فيها أن شخصيته العظيمة فريدة في جوانبها كلها، وإذا نظرنا إلى فرادته اللغوية فيمكن القول بيقين ثابت: إن العوامل المؤثرة إيجاباً في اكتساب اللغة عند الفرد واتقانها قد توافرت كلها لعليّ (ع) بشكل مميز ولم تتوافر لغيره مطلقاً. حتى النبيّ الأكرم (ص)، إذ إن النبي (ص) لم يشرف على تربيته نبي آخر في مراحل الأولى بل أشرف على تربيته مربية، وعاش طفولته يتيماً، فكان معجزة إلهية، أما شخصية عليّ (ع) فقد رعاها وتعاهدتها خاتم الأنبياء والمرسلين، واعظم الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً، فنشأت هذه الشخصية العظيمة في مواصفات خاصة لم تنهياً لغيره، لامن ناحية الوراثة، ولا من ناحية التربية والنشأة.

وكذلك يمكن القول إن العوامل المؤثرة سلباً في اكتساب اللغة عند الأفراد، والتي ذُكرت آنفاً. كانت بعيدة كل البعد عن شخصية عليّ (ع) فمن جهة الوراثة قد ورث هذا المولود أنقى الجينات الوراثية وهي نفسها الجينات التي أودعت في النبي الأعظم محمد (ص) حسب نصوص الاحاديث النبوية الشريفة الكثيرة بهذا الصدد، ومنها: ((خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ))^(٢٢)

أما من ناحية العيوب كان عليّ (ع) نقياً من كل عيب خلقي فهو سليم الجسد نقي من العيوب، ومن ناحية البيئة فقد حضى ببيئة مثالية نموذجية لاكتساب اللغة العربية بل هي النموذج الأول والفريد في لغة العرب ولا مثيل لها. لأنها بيئة (أفصح العرب).

من هنا كانت سمات هذه الشخصية العظيمة متفردة، وإذا أردنا أن نكشف عن شيء آخر نتيجة لتولي النبي (ص) تربية عليّ (ع) ومرافقته إياه في مراحل النبوة كلها. يمكننا أن نقول أيضاً إن التجربة التي تربى عليها عليّ (ع) فريدة بتفاصيلها كلها، ففي الوقت الذي كانت مشاغل الحياة وشؤونها الدنيوية هي كل ما يشغل ذهن الصبية والفتيان والشباب أقران عليّ (ع) نراهم يلعبون في طرقات قریش ويلهون بعرضاتها وربوعها سهولها، ويسمعون من رجالاتها في أسواقهم المليئة بالمفاهيم الجاهلية القائمة على القسوة والظلم وكثير من الرذيلة تتباهى بها على ألسنة شعرائها وكبار القوم.

كان عليّ (ع) بعيداً كل البعد عن هذه الأجواء يعيش تجربة أخرى ليس من جنس ما يعيشه أقرانه في مراحل حياته كلها كان يعيش تجربة المناجاة مع الخالق الحق وتجربة الإنعتاق من عالم الدنيا والسمو في عالم الملكوت، كان يعيش تجربة بعثة نبي آخر الزمان. يعاصرها لحظة بلحظة ويتشرب مفاهيمها وقيمها أولاً بأول حتى كان ثالث ثلاثة في أول بيت عُبد فيه الله الواحد بعد البعثة وهو صبي مشاركاً بذلك النبي الأعظم وزوجته الصالحة (خديجة).

وإذا كان أقرانه غارقون في صباهم وشبابهم بعلاقاتهم المتعددة مع النساء، ويقضون أوقاتهم بالسمر وتعاطي الخمر والمجون والفسوق، وتغلب عليهم نزعة الجهل والظلم والغارة والعدوان، ويتفاخرون بذلك ويعبرون عن تجاربهم تلك بالشعر الذي كان يفخر بقيم معينة، كان عليّ (ع) يقف معهم على طرف نقيض لتجربتهم تلك، فلم يكن يجد في (الشعر الجاهلي) بقيمه ولغته ومكوناته، لم يجد فيه السبيل المعبر حقاً عن تجربته الايمانية التي عاشها وقتئذ.

الشعر لم يكن ناطقاً حقاً عن قيم عليّ (ع) ومثله ولغة الشعر لم تكن تطبيق تلك المعاني التي تربي عليها عليّ (ع) وكونت شخصيته. لذا كان (ع) بعيداً عن مضمار الشعر المعتاد أيام الجاهلية وصدر الإسلام. وجد الإمام (ع) نمطاً آخر من الكلام يلبي تجربته ويعبر عن مكونات نفسه، ذلك النمط ما نجده في خطبته ورسائله وحكمه، بل نجده في كلام أمير المؤمنين (ع) كله، أنه بصمة خاصة بتوقيع عليّ (ع) لا يستطيع أحد أن ينكر أن كلامه كان فريداً مميزاً ومن خَبَرَ كلامه (ع) وتمرس فيه يميّز جملة وعباراته من بين كثير من الكلام. حتى قيل في كلامه أنه: ((دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق)).^(٢٣)

إن كلام أمير المؤمنين (ع) ومقوماته اللغوية قد استمدت كلها من فرادة تجربته الشخصية التي لم يكن له مثيل فيها. واستقى عليّ (ع) مقوماته لغته من لغة القرآن الكريم ولغة الوحي الأمين، استمدت لغته من مناجاة النبي الأعظم (ص) لربه أيام خلوته في غار حراء قبل البعثة أيام كان عليّ طفلاً وصبيّاً يصحبه النبي معه في كل مكان.

لقد تشرب نفس عليّ لغة السماء منذ اليوم الأول لنزولها، فقد سمع أولى كلمات الوحي وعاصرها كلمة كلمة وآية آية ختم عمره الشريف في هذا الفضاء فضاء السماء ووحياها وقيمها. لذا انعكست هذه العناية الإلهية على جميع كلامه وخطاباته.

إن لغة القرآن الكريم ولغة الوحي ومناجاة النبي الأكرم (ص) كانت اللبنة الأساس التي شكلت لغة الإمام عليّ (ع) وجعلت منها فريدة مميزة. ولم يكن الشعر السائد في ذلك العصر ولا لغته ولا قيمه يحيط بتجربته (ع) لذا لم يعتمد على الشعر أداة في نقل أفكار تجربته؛ بل ابتدع لنفسه نمطاً آخر من الكلام مستمداً من لغة القرآن الكريم فهو الأقرب لتمثيل تلك التجربة من حيث القيم والمعاني والبلاغة واللغة.

كانت لغة الإمام علي (ع) شاعرية في نثرها، بليغة في تراكيبها، مفعمة بالمعاني التي لا يحيط بالتعبير عنها أحدٌ غيره (ع). وقد قال ابن عباس حينما سئل: ((أين علمك من علم ابن عمك؟)) فقال: ((كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط)).^(٢٤) فكل خطابه مؤثرة في المتلقي وذات مستوى عالٍ يخاطب كل العقول ويرضي جميع الأذواق، مع مراعات مقتضى حالهم وميولهم المتباين.

انعكاسات تلك المراحل في كلام أمير المؤمنين (ع) والمتمثلة في نهج البلاغة:

من يتتبع تأريخ ابن أبي طالب (ع) يجده خطيباً ليس له نظير إلى يومنا هذا، لما له من تأثير كبير على المتلقي، وذلك من خلال أنماطه المتنوعة. وما نهج البلاغة إلا دليل واضح على ذلك، وهو أساس البلاغة العربية، إذ عُدَّ الصنف الثاني بعد القرآن الكريم، من حيث النظم والصياغة والأسلوب اللغوي. تميز بعدم التكلف، والقافية التي حققت أسلوب النغم الموسيقي، وعند تحليل بعض النصوص، نجدها تنتمي إلى النوع القصير وهذا هو الأصعب في اللغة، وتلمس أيضاً الفواصل الزمنية، وما لها من أصوات تأتي كمعنى منسق، فعلى سبيل المثال لا الحصر استعماله لصوتي (الميم، الهاء) والتي أشار لهما البحث آنفاً، وكذلك تكرار القافية فيها.^(٢٥)

لذا يرى الباحث أن هناك علاقة مطردة، بين مخارج الأصوات وما تنتجه المنظومة النطقية بطبيعة استعمالها ومقتضى الحال في أثناء العملية الخطابية، فتلك العملية تختلف في علاقاتها من فردٍ لآخر،

لتؤدي بدورها أغراضاً معينة، المراد منها تكوين بناء لغوي بشكل هندسي مقنع للمتلقي، ليظهر علناً بقولات كلامية انفعالاته اتجاه المتلقي في مختلف المواقف والموضوعات، وذلك بأساليب مختلفة وطرق متعددة، تكون خاضعة بطبيعتها لمؤثرات خلقية فسيولوجية، وأخرى نفسية، تعتمد في حدتها على قدرة ذلك الفرد ومدى تأثره، ومستوى ادراكه العقلي مع الكم المعلوماتي المتراكم لديه، لينتج في النهاية نصاً معبراً عما يدور في خلجات الروح والوجدان، فالنبر والنغم الموسيقي والاهتزازات المؤثر في منظومة السمع، تقوم بدورها بتحريك عظيمات الأذن لدى المتلقي لتوفر جواً صახباً مشحوناً بالمشاعر والأحاسيس، تترتب عليه عمليات التفاعل والاستجابة الآنية، وتتوقف شدتها من موقف لآخر، فكلما تصاعد الخطاب وتآزم زاد من شحن المواقف، وقد يصحب ذلك تعابير وإشارات في أعضاء أخرى غير النطقية لدى المتحدث، تزيد وتعضد تلك الانفعالات الكلامية.

يبين لنا استعمالاتها جملةً من الأساليب النحوية دون سواها في بعض خطب نهج البلاغة، ويظهر لنا تركيز الإمام علي (ع) واعتماده عليها بنسب كبيرة، لما لها من الأثر الواضح في اقناع المتلقي، وما تعثره هذه الأساليب من إشارات، كونها ضرورة من ضروريات الخطاب الفصيح، أبرزها أنواع الجمل والأساليب منها: (النداء، الحذف، النفي، العطف، التوكيد، الاستفهام، التقديم والتأخير، النعت، والتماثل، واستعمال الحروف والمصادر والأفعال وأسماء الأفعال وغيرها). وهذه الأساليب الفنية تتوافر بغزارة في النص العلوي الشريف، فكل تحويلة وانتقالة في الجمل من خلال السياق لها غاياتها وأغراضها ووظائفها في السياق، لتتناسب مقتضى الحال.

كل ذلك يدل على أنّ صاحب هذه النصوص المقدسة لديه أدوات فاعلة يصنع منها آلية خطابية محكمة، أجزاؤها التراكيب، ووظيفتها الأقناع، مع إضفاء لمسة الأداء في البيان اللغوي للخطاب المعرفي كونها

منهجية منقطعة النظير، مستمدة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إذ كانت هذه السمة تتحدث عن صاحبها وفرادته، دون غيره من خطباء العرب والمسلمين، فكلما تصاعد الإمام علي (ع) في فكرة معينة من خطابه، كلما وظف جملاً وأفعالاً وحروف زادت من وتيرة هذا الأداء اللغوي، وزاد شحن المواقف، لتتمخض عن قولات كلامية غاية في الإتقان والصياغة، قد يصحبها كما أسلفنا تعابير وإشارات تعضد تلك الانفعالات الكلامية والنفسية، التي تعتمد في شدتها على الإصرار في توضيح الأمور الدينية منها أو الدنيوية، لينتج لنا في نهاية المطاف نصاً ابداعياً مميزاً يحرك الوجدان وتتشعر منه الأبدان.

يرى الباحث أن الإمام علي قد استعمل المشتقات بشكل كبير، (اسم الفاعل اسم المفعول، الصفة المشبهة اسم المكان)، فالأوزان العربية لها دلالات متعددة لكل منها استعمال خاص، فكل تغير في المبنى زيادة كان أم نقصان، يأتي بظلاله على المعنى المراد داخل سياقات النص، إضافة إلى الجموع، إذ اعتمدت النصوص الجموع غير القياسية، ك(جموع التكسير) الدالة على (القلة والكثرة)، ولم ترد الجموع القياسية المتمثلة ب(جمعا المذكر السالم والمؤنث السالم) إلا ما ندر، وما استعمل من أبنية الأفعال الثلاثية والرباعية والخماسية، لما لها من دلالات ومعانٍ، ليرتقي بالمتلقي في عملية التواصل البناء المتسلسل نحو إيصال الفكرة تلو الأخرى بأسلوب متميز، يدعو إلى الدهشة والغربة، كون هذه النصوص ترقى إلى مستوى القداسة والسمو، وهذا يدل على مقدرة المنشئ وبراعته في استعمال اللغة بشكل رائع وفريد، فكانت تلك المفردات توظف بعناية وحكمة، تراعي من جهة ذوق المتلقي، وتساير من جهة أخرى ما يحكمه السياق وقوانين اللغة، لتظهر لنا في النهاية جملاً ذات نبرات متصاعدة، نحو تكامل النص الإبداعي، وتلاحمه، ولو تتبعنا النص لوجدناه أشبه بمنظومة لغوية غاية في الإبداع والرقى، قد يسأل سائل: كيف

لهذا الخطيب أن جمع كمالات اللغة وأساليبها المتعددة في قالب واحد متراس ومتماسك؟ الجواب هو أن من ولد في بيت الله وترى في حجر القرآن اكتسب لسان البلاغة وفصاحة العرب.

النتائج:

- ١- اكتساب اللغة يتوقف على عوامل وأمر يجب توافرها لتحقيق ذات متميزة ومتفردة.
- ٢- إن العوامل الوراثية والبيئية والعناية الإلهية أنتجت لنا شخصية لا يمكن تكرارها.
- ٣- أي عملية تواصل أو اتصال يجب أن تتوفر فيها مجموعة من الأدوات والعوامل والوسائط وغير ذلك، كي تحقق أغراضها وأهدافها.
- ٤- إن الخطاب المرسل من قبل الإمام علي(ع) يختلف ويتغير بحسب المرسل إليه ومدى استجابته وإدراكه العقلي من شخص لآخر، فالألفاظ والأنماط التي وظفت بغية التواصل مع عامة الناس في المحافل المختلفة والأسواق، ليس شبيهة بالتي دارت بينه وبين رب العزة في المناجاة والتضرع، وليست هي هي بينه وبين رسول الله(ص)، وهو القائل: ((أمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدر عقولهم)).^(٢٦) ولا شك في أنها تختلف حتى مع أهل بيته(ع) أو خاصته أو أصحابه المقربين الكرام، من ذوي الذوق الرفيع والعلم الغزير، أمثال عمار ومالك الأشتر وسلمان وأبي ذر وميثم(رض) وغيرهم.
- ٥- استعمال أساليب لغوية صوتية خاصة بالحروف ومخارج الأصوات كالمهموسة لموضوعات معينة دلالة الهدوء والسكينة، بينما هنالك ما يقتضيه الحال والمقام لأختيار أصوات مجهورة وصفات أصواتية أخرى لها دلالاتها في السياق وحال المتلقي.
- ٦- استعمال أساليب وتراكيب نحوية مقصودة، فمثلاً استعمال الجمل الفعلية دلالة التجدد وتعاقب الأحداث وتحولها من جهة، واستعمال الجمل الإسمية لدلالة الثبوت والاطمئنان والاستقرار.

الهوامش:

- (١) ينظر: الحوار وبناء شخصية الطفل: ٣٠.
- (٢) ينظر: الغدير نهاية وبداية: ٧-٨.
- (٣) الصحيح في سيرة النبي: ٢١٠/٥.
- (٤) ينظر: مناقب علي بن أبي طالب: ١٥٠.
- (٥) ينظر: مروج الذهب: ١٢/٣٥٨. وعلل الشرائع (للصدوق): ١٩٥. والغدير نهاية وبداية: ٦-٧.
- (٦) الإمام علي بن أبي طالب (ع) في مرويّات الطبري (دراسة مقارنة): ٢١-٢٣.
- (٧) الأمالي (للصدوق): ٣٢٧. والخصال: ٣١. وعيون أخبار الرضا: ٢: ٦٣. وبحار الأنوار: ١٣٥/٣٤.
- (٨) بحار الأنوار: ١٣٥/٣٤.
- (٩) شرح إحقاق الحق: ١٥/٢٥٣.
- (١٠) ينظر: الغدير نهاية وبداية: ٨-٩.
- (١١) علل الشرائع: ١١/١٣٥-١٣٦.
- (١٢) ينظر: الغدير نهاية وبداية: ٨-٩.
- (١٣) الأمالي (للصدوق): ٥٨. والأمالي (للطوسي): ٥٠. وكتاب الأربعين: ٧٦.
- (١٤) المستدرك على الصحيحين (للنيسابوري): ٢/٢٤١. وعيون أخبار (الرضا)، (للصدوق): ١٢/٧٨.
- (١٥) تاريخ الأمم والملوك: ٤/٢٦٤. ومجمع الزوائد: ٩/١٠٠.
- (١٦) نهج البلاغة: ١١/١٨٥.
- (١٧) بحار الأنوار: ١٠/٣٥. وكتاب الأربعين: ٦١. وعمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار: ١٠. وشرح نهج البلاغة: ٣١٩/٤.
- (١٨) ينظر: العمدة: ١١/٤٩٣.

- (١٩) مغني اللبيب: ١١/ ١١٤. وتاج العروس: ١١/ ٥٧. ومناهج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١١٥/ ٢.
- (٢٠) الاختصاص (للمفيد): ١٨٧.
- (٢١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي (ع): ١٥٦١٢. والغدير: ١٣/ ٢٤٠. وينظر: الإمام علي (ع) من المهد إلى اللحد: ١٩-٢٠.
- (٢٢) الخصال: ٣١. والأمال: ٣٠٧.
- (٢٣) بحار الأنوار: ١٤١/ ١٤٦. وكتاب الأربعين: ٤١٩. والغدير (للأميني): ١٥١٣.
- (٢٤) المصدر نفسه: ١٤١/ ١٤٢.
- (٢٥) ينظر: من القيم الصوتية في نهج البلاغة، تحسين فاضل عباس، (بحث): ٢٥٦-٢٨٣.
- (٢٦) المختصر، حسن بن سليمان الحلبي: ٢٠٠، وبحار الأنوار: ١١/ ٨٥، ١١٨، ١٦١.